الاختلاف
في مسائل الفروع
لا يسبب الفرقة

إعداد فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن البسام
عضو المجمع الفقهي الإسلامي
ونائب رئيس محكمة التمييز بالمنطقة الغربية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الدين الإسلامي يدعو إلى الألفة والاجتماع، ويحث على التعارف والتآلف، ويدني قلوب معتنقيه بعضها إلى بعض، ويربط بينهم بحقوق مشتركة، من إفشاء السلام، وعيادة المريض، وزيارة الصاحب والقريب، فالأخوة الإيمانية بين أتباعه هي عنوان الوحدة، وهي نظام الجماعة، وهي سر الكلمة بين الأسرة الإسلامية الواحدة، فنصوصه الشريفة طافحة بهذا المبدأ الكريم.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [**الأنبياء**: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [**الحجرات**: ١٠].

قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [**التوبة**: ٧١].

وجاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله" إلى أن قال "وكونوا عباد الله أخوانا".

وجاء في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**).

والنصوص في هذا المعنى كثيرة معلومة، وقد جعل الله تعالى من أهداف شرائعه العظام الاجتماع عليها في الزمان والمكان؛ لتكون وسيلة صلة

بين المسلمين، وتكون ميدان تلاق بين المؤمنين، فيشعروا بأخوة الإيمان، ويحسوا بصفاء القلوب، وتقارب النفوس التي ما تعارف منها ائتلف؛ ولتكون تلك العبادات رابطة مودة وإخاء، وآصرة محبة وولاء، فما الاجتماع للصلوات الخمس في مسجد الحي الواحد، وما اجتماع أهل البلدة في جامعهم كل أسبوع لصلاة الجمعة وسماع الموعظة، وما اجتماع المسلمين كل عام في مكة المكرمة وصعيد عرفات والمشاعر المقدسة، نعم، لم تشرع هذه اللقاءات الدورية بين المسلمين إلا لأهداف كريمة وأسرار عظيمة، منها التعارف والتآلف بين المسلمين، والتشاور فيما يعود عليهم وعلى دينهم بالنفع كما قال تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾ [**الحج**: ٢٨].

فالحَكَمُ العليم جعل من شعائره العظيمة طريق الألفة والمحبة بين عباده؛ ليكونوا أمة واحدة تحت شعار واحد هو"لا إله إلا الله محمد رسول الله " وحينما كان المسلمون مطبقين هذا المبدأ الكريم كانوا هم أصحاب العزة والسيادة، وكانوا هم القادة والسادة.

وبقدر ما حث الإسلام على الاجتماع واتحاد الكلمة فقد حذر من الاختلاف، ونفّر من التنازع، واعتبر تفرق الكلمة مقدمة الفشل، وذهاب الريح المعنوية والقوة النفسية، وحلول الهلاك والبوار في الأمة التي يدب فيها داء الفرقة، ويحل فيها داء الشقاق، وقد قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [**آل عمران**: ١٠٣] . وقال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ [**البقرة**: ١٧٦] وقال تعالى﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾**﴾ [**آل عمران**: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٤٦]. وقال تعالى ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [**الشورى**: ١٣]. وقال تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ [**البينة**: ٤]. والآيات في هذا الباب كثيرة كلها تنهى عن التفرق والاختلاف وتنعى على المتفرقين والمختلفين.

وأما الأحاديث فقد جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (**لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا**) وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يقهره**).

وقد قال ﷺ : "**رحم الله امرءً ترك المراء ولو كان محقا**".

وفوائد اجتماع المسلمين، وتوحيد كلمتهم، ولَمِّ شملهم من الأمور الضرورية التي يدركها كل إنسان.

فما عزَّ الإسلام وما انتصر المسلمون إلا يوم كانوا يدا واحدة، وصفا واحدا، والكلمة منهم موحدة، والاتجاهات متحددة ، بهذه العدة القوية، وبذلك الاتحاد المتلاحم، نهضوا من بلادهم القاحلة، ونفروا من جزيرتهم الجرداء لنشر دين الله تعالى، وإعلاء كلمته، وهداية البشرية، وإرشاد الضالين، فنشروا دين الله تعالى، وأخرجوا البشرية التائهة من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، ومن جور الطغيان إلى عدل الإسلام، ومن ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وما زالت جيوش التوحيد تعبر شرق الدنيا وغربها فاتحة القلوب قبل فتحها البلدان، وناشرة العدالة والمساواة في أرض الله الواسعة، حتى أصبحت أغلب المعمورة من الأرض تدين بالإسلام، وتردد (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وسائق هذا الزحف العظيم وقائده هو الكلمة الواحدة، والصف الموحد؛ لتحقيق الأهداف النبيلة، والمقاصد الحسنة، والمصالح المنشودة، حتى أصبح أولئك الأعراب الجفاة الحفاة هم سادة العالم، وهم قادة الدنيا، وزعماء الإصلاح، جمعوا بين عز الدنيا وثواب الآخرة.

فهذه بعض ثمار اجتماع الكلمة، وتوحيد الصف، وتنسيق العمل بقلوب صافية، وأنفس طاهرة وإخلاص في الاتجاه، ونصح للمبدأ.

الدين الإسـلامي لـه أعداء وأضـداد من تلك الأمم، التي أزال طغيـانهـا فكادوا للإسلام، ولم يجدوا لكيده والتدابير للإطاحة به أنجع من أن يدخلوا فيـه، وينتسبـوا إليـه؛ ليطعنوه من الخلف، ويأتوا المسلمين من حيث لا يشعرون، فدخل هؤلاء الزنادقة، وتوغل فيه أولئك المنافقون فبثوا الفرقة بين المسلمين وبذروا العداوة في صفوفهم، و أشاعوا الخلاف بينهم مما سبب الحروب الطاحنة بينهم، قبل أن ينتهي عهد الصحابة، فكانت حرب الجمل، وصفين والحرة، وحصار مكة المكرمة، وغير ذلك من تلك المعارك التي تدمي قلب المسلم الغيـور ، تلك المعارك التي نقصت عدد المسلمين المجاهدين، وزرعت العداوة بينهم، وسببت الفرقة بينهم، وشلت نشاط الإسلام، و أوقفت مد زحف الفتوحات الإسلامية، وصارت نواة للعقيدة الفاسدة من الخوارج، والشيعة، والقدرية، والجبرية، وغيرها من تلك العقائد الفاسدة التي لم ينشئها إلا فرقة المسلمين، وشتات كلمتهم، فهذه بعض مضار الاختلاف والفرقة.

إذا علمنا النصوص الكريمة التي تحث على جمع الكلمة، وتوحيد الصف، والنصوص الكريمة الأخرى التي شنعت أمر الفرقة والاختلاف، وعلمنا فوائد الاجتماع، وما يجلب من الفوائد والعوائد، وعلمنا أيضا مضار الاختلاف والتفرق، وما يجر من الشرور والويلات، وعلمنا أن أساس اختلافنا وتفرقنا هو تدبير أعدائنا، وكيد الحاقدين علينا، ودسيسة المتربصين بنا.. فلماذا نتمادى في غفلتنا، ولماذا ننقاد دائما وراء أعدائنا؟.

إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ونحن نلدغ المرة، بعد المرة ونخدع الخداع إثر الخداع، ثم لا نتعظ ولا ننتبه.

لماذا نجعل لأعداء الله وأعداء دينه ممن بعضهم من جلدتنا، ويتكلمون لغتنا، ويعيشون بين أظهرنا، ويظهرون لنا المودة والصداقة والنصح، والله يشهد إنهم لكاذبون.

لماذا لا تكون لنا حاسة سادسة وفراسة صادقة نعرف بها الصديق من

العدو ونميز بها الصادق المصلح من المفسد.

إذا كان المسلمون في كل عصورهم بحاجة إلى الاجتماع والالتئام، وبحاجة إلى توحيد الكلمة، ولمّ الشمل، فإنهم في هذه الأزمنة الأخيرة أشد حاجة وأمس ضرورة؛ ذلك أن أعداء الإسلام تكالبت عليه من كل مكان، وأن الشرور تداعت عليه من كل صوب، وأن وسائل المكر كثرت، وأساليب الخداع تنوعت ، وأن الحاقدين على الإسلام والمسلمين قد استفحلوا في حرب الإسلام، والقضاء عليه، كل الوسائل الحديثة من قواهم المادية والمعنوية.

فقد غزتنا جيوش الأعداء في فلسطين، ولبنان، وأفغانستان، وغيرها من بلاد العرب، المسلمين.

وغزتنا السياسة الاستعمارية التي نخرت في قلب العالم الإسلامي، حتى مزقت أشلاءه وقطعت أوصاله.

وغزتنا جحافل التنصير والتبشير، متخذة الغذاء والدواء والتعليم لها وسيلة إلى قلوبنا وأفكارنا؛ فأسسوا الملاجئ والمستشفيات في بلاد الإسلام، وفتحوا المدارس والجامعات، زاحموا بها التعليم الإسلامي؛ ليصرفوا المسلمين عن دينهم، وليخرجوا من مدارسهم التبشيرية طائفة من أبناء المسلمين يقومون مقامهم ويسدون فراغهم في صرف المسلمين عن عقيدتهم، وإبعادهم عن مبادئهم.

ثم غزونا الغزو الفكري بوسائل الإعلام كلها، من المذياع والتلفاز، والمجلات والصحف، والنشرات والدعايات، وغير ذلك من المكر والكيد والدس الذي لا نعرف أكثره .

فإذا لم نتحد ولم نجتمع، وإذا لم تكن كلمتنا واحدة، ومنهجنا واحدا، وكفاحنا واحدا، إذا لم نتحد أمام هؤلاء الأعداء، وأمام أولئك الخصوم الألداء الذين شنوا الغزو علينا بكل وسيلة، وأعدوا للقضاء علينا كل عدة، وقعدوا لنا في كل مرصد.

إن لم نجتمع و نتخذ حذرنا، فَقُلْ علينا العفاء، ومصيرنا البوار.﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وإنما يكونوا ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

أيها الإخوان: نحن ـ الآن ـ نعيش في صحوة إسلامية عامة، وفي وعي ديني منتشر في البلاد الإسلامية، وغير الإسلامية، من أقطار الدنيا، وهذه الصحوة المباركة، وهذا الوعي الميمون أكثر ما يكون في الشباب والشابات. وكل مسلم غيور على دينه يفرح بهذه الصحوة ويغتبط بذلك الوعي ويسأل الله تعالى أن يبارك فيه، وأن يزيد منه، وأن يوجهه الوجهة الصالحة، وأن يدله على طريق الخير وسبيل الهداية، وأن يقيه شر العثرات والنكسات والنكبات.

كل مسلم محب لدينه، ومخلص لربه، وناصح لأمته يبتهل إلى الله تعالى أن يهيئ لهذا المد الإسلامي أن يبلغ مداه، ويصل منتهاه فيعم مشارق الأرض ومغاربها، وأن يصل إلى قلوب غلف وأعين عمياء، فيجلو صداها، ويزيل غشاها؛ لتبصر الحق، وتستنير به، فينقذها الله تعالى من الهوة الهاوية، إلى الخبة العالية، وأن ينشلها من شفا حفر النار، إلى منازل الأبرار ، وأن يزجها من ظلام الشرك، والكفر، والإلحاد، والعلمانية، والبعثية، والشيوعية، والبوذية، والمجوسية، وغيرها من ملل الكفر إلى نور الإسلام ومصابيح الإيمان وهدي القرآن.

كل ما تقدم من البحث ما هو إلا مقدمة للفقرات الآتية:

إننا في نشوة عظيمة، وفي فرحة كبيرة، حينما رأينا هذا الشباب الطامح، وهذه الدماء الحارة المتدفقة مقبلة على ربها، وواعية بأمر دينها، وجادة في الدعوة إلى الله تعالى؛ فالشباب هم رجال الغد، وهم عدة المستقبل وهم أمل الدين والأوطان.

لذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى رعاية هذه الصحوة الدينية المباركة، وذلك الوعي الإسلامي الحميد.

فعلينا أن نوصي أبناءنا بما نوصي به أنفسنا؛ إبقاء على هذه الصحوة المباركة، ومحافظة على سلامة سيرها، وصيانة مخطط عملها من النكسات، نوصي بأن لا يتخذوا من الخلاف في المسائل الفرعية الاجتهادية ميدان شقاق وعداء، ومثار أحقاد وشحناء وسبب تباعد وتنافر، بل يبحثوها بحثا عمليا، ويناقشوها نقاش استفادة وإفادة؛ ليصلوا إلى القول الأرجح فيها، وينتهوا إلى الرأي السديد في المسألة.

فالمسائل الخلافية الفرعية يسوغ فيها الاجتهاد؛ لاختلاف أنظار العلماء وآراء الفقهاء فيها ، فكل منهم يرى ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده ، وقد كان الخلاف فيها موجودا زمن الصحابة، ثم زمن التابعين ثم من بعدهم من الأئمة، وكل يذهب إلى ما يؤديه إليه اجتهاده وبحثه ، ولم يعب أحد منهم على أحد ولم يخطئ أحد منهم أحدا ، بل إن الاجتهاد في المسائل العلمية وجد بين الصحابة، والنبي صلى الله عليه وسلم حيّ بين أظهرهم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة ". وبعض الصحابة اجتهد وصلى في الطريق، وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد تأخير الصلاة عن وقتها، وإنما أراد الحث على السرعة في النفير إلى بني قريظة، وبعضهم تمسك بظاهر النص فلم يصل العصر إلا بعد غروب الشمس في بني قريظة، ولم يعب بعضهم بعض. والنبي صلى الله عليه وسلم أقرهم على اجتهادهم واختلافهم في فهم النص ، وهناك قضايا من هذا كثيرة متشابهة.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله له رسالة سماها: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام " ذكر فيها غالب أسباب اختلاف الأئمة والعلماء في المسائل الفرعية، و أنها أمور طبيعية يقتضيها اختلاف الأفهام، وكيفية تصور النصوص، واختلاف وجهات النظر في فهمها، وتفرق الأمة وتباعد أقطارهم، وكون الطائفة عندها من النصوص ما ليس عند الأخرى، وغير ذلك من أسباب الاختلاف، إلا أن كل هذا لم يسبب بينهم عداوة ولا شحناء، ولا

عصبية ولا بغضاء، بل هم أمة واحدة تجمعهم أخوة الإيمان، وصلة الدين، ونسب العلم.

ولنلخص من هذه الرسالة القيمة بعض الفقرات، نتبين منها سعة أفق هذا الإمام الجليل.

قال رحمه الله تعالى: يجب على المسلمين – بعد موالاة الله تعالى ورسوله – موالاة المؤمنين خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سنته، فإنهم متفقون على وجوب اتباع الرسول، فإذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له عذر في تركه.

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله.

الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة:

السبب الأول: أن لا يكون الحديث قد بلغه ، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالماً بموجبه.

وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفاً لبعض الأحاديث، فإن الإحاطة بالأحاديث لم تكن لأحد من الأمة، ولا يقولن قائل : الأحاديث قد دونت وجمعت فخفاؤها والحال هذه بعيد؛ لأن هذه الدواوين المشهورة بالسنن إنما جمعت بعد انقراض الأئمة المتبوعين.

السبب الثاني : أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده وهذا أيضا كثير جداً.

فإن الأحاديث كانت قد انتشرت واشتهرت، لكن كانت تبلغ كثيراً من

العلماء من طرق ضعيفة، وقد بلغت غيرهم من طرق صحيحة غير تلك الطرق، فتكون حجة من هذا الوجه.

السبب الثالث: عدم معرفته بدلالة الحديث لأمور:

فتارة لكون اللفظ الذي في الحديث غريباً عنده كالمزابنة، والمحاقلة، والمخابرة، والملامسة، والمنابذة، والغرر، إلى غير ذلك من الكلمات الغريبة التي يختلف العلماء في تفسيرها.

وتارة يكون اللفظ مشتركاً، أو مجملاً، أو متردداً بين حقيقة ومجاز، فيحمله على الأقرب عنده، وان كان المراد هو الآخر.

السبب الرابع: اعتقاده أن لا دلالة في الحديث، بأن يكون له من الأصول ما يرد تلك الدلالة، سواء كانت في نفس الأمر صواباً أو خطأ.

فهذه الأسباب يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع عليها، فإن مدارك العلم واسعة، لم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا، وقد لا تبلغ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه، وقد لا ندركه، لكن نحن - وإن جوزنا هذا - فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم، إلى قول آخر قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجة وإن كان أعلم، إذ تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية؛ فإن الأدلة الشرعية حجة الله على جميع عباده، بخلاف رأي العالم.

وليس لأحد أن يعارض الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بقول أحد من الناس، وإذا كان الترك يكون لبعض هذه الأسباب فلا يجوز أن يعتقد أن التارك له من العلماء الذين وصفنا أسباب تركهم لكونه حلل الحرام أو حرم الحلال أو حكم بغير ما أنزل الله.

وكذلك إن كان في الحديث وعيد على فعل: من لعنة، أو غضب، أو

عذاب ونحو ذلك فلا يجوز أن يقال : إن ذلك العالم الذي أباح هذا أو فعله داخل في هذا الوعيد ، وهذا مما لا نعلم بين الأمة فيه خلافاً ، فإن بلالاً لما باع الصاعين بالصاع أمره النبي صلى الله عليه وسلم برده ولم يرتب على ذلك حكم آكل الربا، من التفسيق واللعن والتغليظ؛ لعدم علمه بالحرمة.

وكذلك أسامة بن زيد لم يوجب عليه قوداً ولا دية ولا كفارة، لما قتل الذي قال: لا إله إلا الله؛ فإنه كان معتقداً جواز قتله مع أن قتله حرام.

ثم إنه مع العلم بأن هؤلاء ، وأمثالهم معذورون ، فإنه لا يمنعنا أن نتبع الأحاديث الصحيحة التي لا نعلم لها معارضاً يدفعها، وأن نعتقد وجوب تبليغ العمل بها على الأمة ووجوب تبليغها ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء.

وهذه القاعدة: تظهر بأمثلة منها أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لعن الله آكل الربا) الذي يشمل ربا الفضل وربا النسيئة ، ثم إن الذين بلغهم حديث (إنما الربا في النسيئة) استحلوا بيع الصاعين بالصاع يداً بيد، مثل ابن عباس وأصحابه ، ولا يجوز لأحد أن يعتقد أن تبلغهم لعنة آكل الربا؛ لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلاً سائغاً في الجملة.

ولكن هذا الخلاف لا يمنعنا أن نعتقد تحريم هذا محتجين بالحديث كما لا يمنعنا مجيء الحديث من أن نعتقد أن المتأول معذور في ذلك لا يلحقه هذا الوعيد.

وهذا باب واسع؛ فإنه يدخل فيه جميع الأمور المحرمة بكتاب أو سنة، إذا كان بعض الأمة لم يبلغهم أدلة التحريم، فاستحلوها، أو عارض تلك الأدلة عندهم أدلة أخرى رأوا رجحانها عليها، مجتهدين في ذلك الترجيح بحسب عقلهم وعلمهم؛ فإن التحريم له أحكام من التأثيم والذم والعقوبة والفسق وغير ذلك، لكن لها شروط وموانع، فقد يكون التحريم ثابتاً، وهذه أحكام منتفية لفوات شرطها أو وجود مانع، أو يكون التحريم منفيا في حق ذلك الشخص مع ثبوته في حق غيره.

انتهى ما لخصناه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

فانظر كيف يبين لنا رحمه الله وجه الخلاف بين العلماء ، ويبين لنا أيضا أسباب وقوعه بينهم ، ثم انظر كيف يقدم لهم الأعذار في خلافهم هذا، وأن مقصدهم جميعا كان حسنا، ولكن اطلع أحدهم على ما لم يطلع عليه صاحبه ، وفهم أحدهم من النص ما لم يفهمه الآخر. وأن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

ثم ذكر النص الذي فيه وعيد أو عقوبة، إذا كان المخالف لا يرى لحوق ذلك الوعيد أو تلك العقوبة إليه؛ لتأويل سائغ رآه أن لا يلحقه ذلك، واستدل على ذلك بأدلة كثيرة واقعية متعددة ، منها: تأويل حِلِّ قتل أسامة بن زيد ذلك الرجل الذي قال: لا إله إلا الله ، ومنها: بيع بلال صاعي التمر بالصاع الواحد جاهلا النص، ومنها: تأويل ابن عباس وأصحابه حِلَّ ربا الفضل لحديث: (إنما الربا النسيئة) وغير ذلك.

وعلى كل فإن هذه الخلافات الفرعية - وإن كبرت وعظم ما يترتب عليها- فإنها لم تحدث بين العلماء المختلفين عداوة ، ولم تسبب بينهم فرقة، وإنما هم إخوة مؤمنون يذهب كل منهم في مسائل العلم إلى ما يؤدي به اجتهاده.

وهذا نص قرار المجمع الفقهي الذي يضم نخبة من علماء المسلمين في البلدان الإسلامية على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

يقول القرار ما يلي:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم. أما بعد:

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي في دورته العاشرة، المنعقدة بمكة المكرمة، في الفترة من يوم السبت ٢٤ صفر ١٤٠٨هـ إلى يوم الأربعاء ٢٨صفر ١٤٠٨ هـ، قد نظر في موضوع الخلاف الفقهي بين

المذاهب المتبعة، وفي التعصب الممقوت من بعض أتباع المذاهب لمذهبهم تعصبا يخرج عن حدود الاعتدال ويصل بأصحابه إلى الطعن في المذاهب الأخرى وعلمائها، واستعرض المجلس المشكلات التي تقع في عقول الناشئة العصرية، وتصوراتهم حول اختلاف المذاهب الذي لا يعرفون مبناه ومعناه، فيوحي إليهم المضللون بأنه ما دام الشرع الإسلامي واحدا، وأصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة متحدة أيضا، فلماذا اختلاف المذاهب ، ولم لا توحد حتى يصبح المسلمون أمام مذهب واحد، وفهم واحد لأحكام الشريعة ، كما استعرض المجلس أيضا، أمر العصبية المذهبية والمشكلات التي تنشأ عنها ، ولا سيما بين أتباع بعض الاتجاهات الحديثة اليوم في عصرنا هذا؛ حيث يدعو أصحابها إلى خط اجتهادي جديد، ويطعنون في المذاهب القائمة التي تلقتها الأمة بالقبول من أقدم العصور الإسلامية ، ويطعنون في أئمتها أو بعضهم ضلالا، ويوقعون الفتنة بين الناس.

وبعد المداولة في هذا الموضوع ووقائعه وملابساته ونتائجه في التضليل والفتنة، قرر المجمع الفقهي توجيه البيان التالي إلى كلا الفريقين المضللين والمتعصبين تنبيها وتبصيرا:

أولا: اختلاف المذاهب:

إن اختلاف المذاهب الفكرية القائمة في البلاد الإسلامية نوعان:

(أ) اختلاف في المذاهب العقائدية.

(ب) اختلاف في المذاهب الفقهية.

فأما الأول - وهو الاختلاف العقائدي - فهو في الواقع مصيبة جرّت إلى كوارث في البلاد الإسلامية، وشقت صفوف المسلمين وفرقت كلمتهم، وهي مما يؤسف له ويجب أن لا يكون ، وأن تجتمع الأمة على مذهب أهل السنة والجماعة، الذي يمثل الفكر الإسلامي النقي السليم في عهد رسول الله صلي الله عليه وعلى آله وسلم، وعهد الخلافة الراشدة التي أعلن

الرسول أنها امتداد لسنته، بقوله:" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ".

وأما الثاني - وهو اختلاف المذاهب الفقهية في بعض المسائل - فله أسباب علمية اقتضته، ولله سبحانه وتعالى في ذلك حكمة بالغة ، ومنها الرحمة بعباده، وتوسيع مجال استنباط الأحكام من النصوص ، ثم هي بعد ذلك نعمة وثروة فقهية تشريعية، تجعل الأمة الإسلامية في سعة من أمر دينها وشريعتها، فلا تنحصر في تطبيق شرعي واحد حصرا لا مناص لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحد الأئمة الفقهاء في وقت ما ، أو في أمر ما ، وجدت في المذهب الآخر سعة ورفقا ويسرا ، سواء أكان ذلك في شؤون العبادة، أم في المعاملات، وشؤون الأسرة، والقضاء، والجنايات، على ضوء الأدلة الشرعية.

فهذا النوع الثاني من اختلاف المذاهب - وهو الاختلاف الفقهي - ليس نقيصة ولا تناقضاً في ديننا، ولا يمكن أن لا يكون ، فلا توجد أمة فيها نظام تشريعي كامل بفقهه واجتهاده ليس فيها هذا الاختلاف الفقهي الاجتهادي.

فالواقع أن هذا الاختلاف لا يمكن أن لا يكون؛ لأن النصوص الأصلية كثيراً ما تحتمل أكثر من معنى واحد، كما أن النص لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة؛ لأن النصوص محدودة والوقائع غير محدودة، كما قال جماعة من العلماء رحمهم الله تعالى، فلا بد من اللجوء إلى القياس، والنظر إلى علل الأحكام، وغرض الشارع، والمقاصد العامة للشريعة، وتحكيمها في الوقائع والنوازل المستجدة وفي هذا تختلف فهوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات ، فتختلف أحكامهم في الموضوع الواحد وكل منهم يقصد الحق ويبحث عنه؛ فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، ومن هنا تنشأ السعة ويزول الحرج.

فأين النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبي الذي أوضحنا ما فيه من الخير والرحمة، وأنه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعباده المؤمنين ،

وهو في الوقت ذاته ثروة تشريعية عظيمة، ومزية جديرة بأن تتباهى بها الأمة الإسلامية.

ولكن المضللين من الأجانب الذين يستغلون ضعف الثقافة الإسلامية لدى بعض الشباب المسلم، ولا سيما الذين يدرسون لديهم في الخارج، فيصورون لهم اختلاف المذاهب الفقهية هذا كما لو كان اختلافاً اعتقادياً؛ ليوحوا إليهم - ظلماً وزوراً - بأنه يدل على تناقض الشريعة، دون أن ينتبهوا إلى الفرق بين النوعين، وشتان ما بينهما.

ثانياً: وأما تلك الفئة الأخرى - التي تدعو إلى نبذ المذاهب، وتريد أن تحمل الناس على خط اجتهادي جديد لها، وتطعن في المذاهب الفقهية القائمة وفي أئمتها أو بعضهم - ففي بياننا الآنف الذكر عن المذاهب الفقهية، ومزايا وجودها وأئمتها، ما يوجب عليهم أن يكفوا عن هذا الأسلوب البغيض الذي ينتهجونه، ويضللون به الناس، ويشقون صفوفهم، ويفرقون كلمتهم، في وقت نحن أحوج ما نكون إلى جمع الكلمة، في مواجهة التحديات الخطيرة من أعداء الإسلام ، بدلاً من هذه الدعوة المفرقة التي لا حاجة إليها.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا، والحمد لله رب العالمين.

رئيس مجلس المجمع الفقهي	نائب الرئيس
عبد العزيز بن عبد الله بن باز	د. عبد الله عمر نصيف

الأعضاء:

(توقيع)	(توقيع)	(توقيع)
محمد بن جبير	د. بكر عبد الله أبو زيد	عبد الله عبد الرحمن البسام

(توقيع)	(توقيع)	(توقيع)
صالح بن فوزان الفوزان	محمد بن عبد الله بن سبيل	مصطفى أحمد الزرقاء
(توقيع)	(توقيع)	(توقيع)
محمد محمود الصواف	أبو الحسن علي الحسني الندوي	محمد رشيد راغب قباني
(توقيع)	(توقيع)	(توقيع)
محمد الشاذلي النيفر	أبو بكر جومي	د. أحمد فهمي أبو سنة
(توقيع)		(توقيع)
محمد الحبيب بن الخوجة		محمد سالم بن عبد الودود

د. طلال عمر بافقيه

مقرر مجلس المجمع الفقهي الإسلامي

وأختم كلمتي بهذا التوجيه وهذه النصيحة التي أوجهها إلى نفسي وإلى كل مستمع، لا سيما الشباب المسلم الغيور على دينه وأبناء أمته، فقد سمعنا النصوص الكريمة بالثناء على اجتماع الكلمة واتحاد المبدأ، وما ذكرته تلك النصوص من فوائد الاجتماع والألفة، ثم ما جاء في النصوص الأخرى من ذم الاختلاف والتفرق التحزب، وما جاء في تلك النصوص من ذكر الفتن والمحن التي يجرها الخلاف، وتشتيت الكلمة وضياع الجهود وتفتيت الأمة، وأن هذا الداء لم يأتنا إلا من أعداء الإسلام، الذين لم يجدوا وسيلة لطعن الإسلام أنجع لهم ولا أمضى من سلاح تفريق كلمتهم، وإيجاد الخلاف بينهم، واستمعنا أيضا إلى كلام شيخ الإسلام في تحليلاته القيمة، لبيان خلاف العلماء وأسبابه، وعذرهم في تلك.

ثم استمعنا إلى قرار كبار علماء المسلمين أعضاء المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي، في أن هذا الخلاف في المسائل الفرعية أمر اقتضته أسباب علمية، وأن لله تعالى حكمة بالغة في وجوده، وأنه توسيع في مجال استنباط الأحكام من النصوص.

بعد هذا كله فإنني أهيب بأبنائنا الشباب المسلم الطامح إلى نبذ الخلاف، وإبعاد الشقاق وطرح النزاع، وأن يكونوا أمة واحدة تجمعهم أخوة الإيمان، التي هي أعظم رباط، أوثق آصرة، وأقوى سبب، فربهم واحد ، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وملتهم واحدة ، واتجاههم واحد، فلماذا تكون مباحث العلم اللذيذة المفيدة سببَ فرقةٍ، وداعيةَ شقاقٍ، وموطنَ خلافٍ.

إن العلم بين أهله قرابة ونسب ، وأنه بين طلابه صلة وسبب ، وأن ما يكون سبباً للألفة والمحبة لا يكون أبداً سبباً للعداوة والقطيعة.

ولذا فإن القطيعة والفرقة لم تأت منه، وإنما دخلت في صفوف الشباب المسلم، من عدو أراد تفريقهم، وحاقد أراد تشتيتهم، وهذا العدو الحاقد دخل في صفهم ونسب نفسه إليهم، ليحدث بينهم الشقاق، كما دخل في صفوف أسلافهم فأحدث فيهم الفرق، وأشعل بينهم الفتن.

ولذا فـإني أنصح أبناءنا بأن يحـذروا هؤلاء الدخـلاء، وأن يوقـوهم ليبعدوهم عن صفهم، وينزحوهم من مجتمعهم الذي تحفه الملائكة، وتتنزل عليه الرحمة، ويباهي به الله أهل سماواته.

أما المسائل الفرعية الاجتهادية فتبحث بين أهل العلم وطلابه للوصول إلى القول الراجح، ومعرفة الأقوى دليلاً، والأصح تعليلاً، بجو من المحبة والوئام، وبعد عن التنازع والخصام، وليكن رائد الجميع الخير والمصلحة والفائدة.

فإن حصل الاتفاق على ترجيح قول على قول آخر فذاك، وإلا فكل يعمل ويعتقد ما أداه إليه اجتهاده.

ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران، أجر الاجتهاد وأجر الوصول إلى الصواب.

والسلام عليكم.